الحلقة الثالثة عشرة

(1) (دار الجوائب.. الأسير، أحمد فارس.. يدخل الأفغـاني باديا على وجهه الإستياء والغضب)

أحمد فارس: كنا في سيرتك!

الأفغاني: هل قرأتم الرد على الخطاب في الجريدة الرسمية؟

فارس: أنا قرأته.. ان لدي احساسا أن شيخ الإسلام هو وراء هذه الحملة المسعورة عليك..

الأفغاني: وأنا لدي نفس الإحساس، فهو يحمل لـي وغـرا منـذ أشرت منذ بضعة أشهر الى تعميم المعارف، وجعله إجباريا لكـل الناس. (يدخل خالد ومعه صحف يضعها على الطاولة)

خالد: هذه صحف علقت على خطاب السيد جمال الدين..

جمال الدين: دعني أرى (يتناول واحدة والأسير أخرى وفـارس غيرها)

فارس: نفس الأسلوب كما جاء في الصحيفة الرسمية كأنما الكاتب واحد..

الأسير: لأن العقلية واحدة.. الكتّاب يبدو أنهم من مريدي شـيخ الإسلام..

جمال الدين: ردود لا معنى لها الاّ أن تهيج الخواطر!..

الأسير: ربما كانت من أجل استفزازك للرد.. واضح أنها حملـة مركزة من جماعة ترصد العداء لآرائك..

جمال الدين: في بلدي شهدت اقتتال الإخوة وذوي القرابـة فـي صراعهم على الحكم، وتمزق الأمـة الإسـلامية الـى دويـلات متتطاحنة، وقبضة الدولة العلية واهنة، وتآمر الأجنبي عليها نافذ، يشتري الولاء له، فقلت لنفسي "لأرتحل فأجد مأمنا لـي فـي دار

الإسلام الواسعة، فاذا بي حيث حللت لا أجد الاّ شهوة الـسلطان، وقلة الأمان، وضعف الإيمان!

الأسير: الصفات الحميدة التي يتنافس فيها الناس متى جـاوزت حدها انقلبت الى نقيضها، فالإفراط في الحلم يلتـبس بالـضعف، وفي الكرم يلتبس بالتبذير، وفي الشجاعة بـالتهور والمغـامرة، والإفراط في العبادة والتدين يلتبس بالهوس والخبال! وما تراه ما هو الاّ افراط في كل شيء!

(2) (قصر علي باشا.. علي باشا، شهربان، الأسير، الشدياق على مائدة الإفطار في رمضان)

علي باشا: (الى الشيخ) أول ما استقبلناك كان في رمضان، واليوم نودعك في أول رمضان.. ما أقصر ما أقمت بيننا! وكم أسـعدتنا صحبتك! وكم توثقت صداقتنا، لكأننا نعرفك منذ عشرات السنين!

الأسير: ليتك دعوت الشيخ جمال الدين الأفغاني لأن الأمر صدر له بالجلاء عن الآستانة حتى تهدأ الخواطر وتنسى النفوس جراح الكلام..

علي باشا: انه يعود الينا متى شاء!

الأسير: أتظن رجلا مثل جمال الدين يعود الى مكان أجبر علـى الجلاء منه؟ انه لا يعود مطلقا.. ويفضل أن يسلم نفسه الى شـير علي يفعل فيه ما يشاء!..

شهربان: انني أعرف الناس بشيخ الإسلام هذا الذي يوسوس في صدر السلطان.. لا أنسى حملته علي التي أجبرتني علـى تـرك المدرسة الحربية قبل انتهاء العام.. حرمتني من العلم.. كان مـن الجائز أن أصبح طبيبة لو لم يجهض الشوق في أعماقي لأنهل من العلم.. أليس حراما أن يموت عدد كبير من النساء اللواتي تعـسر ولادتهن لأن ذويهن، بحكم تقاليدنا، لا يسمحون لأطبـاء رجـال بأنقاذهن ومساعدتهن؟

فارس: في مصر أنشئ فرع لدراسة القبالة في القصر العيني منذ ثلاثين عاما!..

شهريان: أفكر أحيانا كيف يحقّ لنا قيادة سوانا ونحـن متخلفـون عنهم؟ هذا ما فعل بنا أمثال شيخ الإسلام الذين يؤخرون تطورنا، بتمسكهم بقشور الإسلام لابجوهره!

فارس: يقولون عن شيخ الإسلام بأنه يرقد ليلا وهو معمم.. ربما لأنه يخاف أن يتدحرج رأسه عن صدغه (ضحك.. يسمع مـن قريـب مدفع الإفطار)

(3) (شهريان في زيارة عائلة الأسير صبيحة العيد، سـناء تحمل علب الحلوى وهدايا أخرى.. حسن يدخل ويـسلم على شهريان فتريت على خده)

شهريان: لماذا لم تأت معنا البارحة الى الحمام؟

حسن: قال لي والدي ان كنت تعتبر نفسك طفلا فاذهب الى حمام النساء، أما اذا كنت تعتبر نفسك رجلا فما عليك الاّ أن تستحم في البيت! لأنني لست معتادا على الحمامات العامة لأصطحبك معي..

شهريان: (ضاحكة) فاعتبرت نفسك رجلا ولم ترافقنـا!..(حـسن يهز رأسه مبتسما.. مخاطبة حنيفة) ان للحمام العام مزايا لا تتوفر في البيت، وأنا لا أفوت الذهاب اليه قبل العيد.. والحمـام الـذي نذهب اليه يخصص في هذا اليوم لاستحمام نساء عائلتنا وتلتقـي فيه أسرتنا، ومعهن صغارهن ومنهم من هو أكبر من حسن..الماء الساخن والفرك بكيس الحمام ينشط الـدورة الدمويـة فـي كـل الجسم.. البشرة تصبح ناعمة موردة نضرة، والشعر قوي غزيـر من العناية الخاصة به يفوح منه المسك والعنبر.. انني أحس بأنني أصبحت أجمل وأخف وأنضر، وعمري يتراجع الى الـوراء ولا يتقدم.. وهذا الحمام الذي نذهب اليه مياهه ساخنة معدنية بطبيعتها وفيه بركة للسباحة يتجدد مياهها، والنزول فيها لـه متعـة لـيس

كمثلها متعة.. هذه حضارتنا التي عممناها في العـالم فلمـاذا لا نستمتع بها؟ (الى فريدة) كم وددت لو تذهبي معنا.. كان عنـدي قناعة أن هذه المياه الساخنة المعدنية تفيدك وتصرف عنك التهاب القصبات، ولكنني استشرت طبيبنا في ذلك فقال لي "لا يجوز مـا دام عندها حرارة" فربما زاد الحمام حالتها سوءا" وعلـى فكـرة أعطاني هذه الأدوية اليك.. شراب مقو للدم وفاتح للشهية تأخذينه قبل الطعام، وشراب مسكن للسعال تأخذين منه ملعقة طعام حـين تستيقظين وأخرى قبل النوم مع كل الأشربة الساخنة التي تعـدها الخالة أم مصطفى.. (تفتح اللفافات) هذا شال لك ياخالة، حكـت مثله لأمي هدية للعيد..

حنيفة: يا الله كم هو جميل! (تزين به كتفيها)

شهريان: وهذه هدية لحسن (تخرج من اللفافـة عدسـة مكبـرة) سمعت من سناء أنك تهتم بدراسة النباتات، وأن لك ولعا بمراقبـة الحشرات.. هذه العدسة من صنع ألماني تكبر عشرين ضـعفا.. (حسن يطير فرحا بالهدية) وهذه لك يافريدة.. معطـف صـوفي سميك حكته لك ومعه قبعة ولفحة من نفس الصوف تلبسينه تحت إزارك في رحلتك البحرية، وهذا عطر الورد الجـوري المركـز قطرة منه تبقى عالقة بك أريجها طوال النهار.. ستذكرين وأنـت في لبنان شجيرات الورد الجوري في حدائق اسـتنبول، وفـوح العطر في أيار، وأحاديثنا ونزهاتنا وآمالنـا أن يتحقـق الإخـاء العربي العثماني.. أتمنى أن تحملي الى بلادك لبنان الذكرى الجميلة عنا، فالشعوب تتآخى وتتلاقى، ونحن أقدر علـى هـذا التـآخي واللقاء.. لقد توحدت نفسيتنا سنين طويلة كنا فيها معا.. أما الحكام الذين يظلمون رعاياهم فهم أول من يظلمون شعوبهم، وحتى مـن يلوذ بهم كماترين بنفسك! (تخرج حنيفة لبعض شـأنها ولتقـديم ضيافة العيد)

فريدة: يعز علي فراق استنبول وفراقك أنت على الأخـص، فقـد كنت لي مثلا أعلى أتمنى أن أبلغه، فأنت رائعة في كـل شـيء وأنت رائدة في كل شيء لكأنما أنت من جيل مستقبلي جاء قبـل أوانه.. تركت والله في نفسي أثرا لايمحى.. أنت الـصديقة التـي أكشف لها أغوار نفسي دون حرج.. لا أستطيع ذلك مـع أمـي وأبي! (تدخل حنيفة تحمل صينية فيهـا كعـك العيـد.. معمـول بالفستق الحلبي مرشوش بالسكر الثلجي، غريبة، أقراص بالعجوة)

حنيفة: انها صنع يدي

(تكتفي شهربان بتناول قطعة واحدة) سلم الله يديك كم هي لذيذة يا خالة.. علي أن أزور وأمي، خالتي أم بهجت.. طال غيابي وهي تنتظرني! (تعانق الجميع وتقبلهم) قد لا أراكم بعـد الآن (تـضع فريدة رأسها على كتفها وهي تبكي)

(4) (دار الجوائب.. فارس يطالع في الصحيفة.. لنفسه)

فارس: ما عاد هناك من يكتب في هذه الصحيفة شيئا ممتعا الشيخ يذهب الى لبنان ويكتب في لسان الحال وهو رئـيس تحريرهـا، وخالد مشغول في عمله الجديد في الكلية الحربية.. (يدخل خالد)

خالد: أريد منك اليوم إجازة لأساعد الشيخ في نقل الحقائب الـى الميناء..

فارس: بارك الله فيك.. أنا سأكون في الميناء في العاشرة.. كـم أكره لحظات الوداع وخصوصا لـصديق مثـل الـشيخ يوسـف الأسير.. أنا أشعر بوحشة الغربة لفراقه، أما هو فحيث ذهب يلتف حوله المريدون والمعجبون، وطلاب العلم والمراجعون يـستفتونه في القضايا الشرعية..

خالد: أريد أن أستشيرك بأمر، فأنت لي بمثابة الأب.. انني أحـب ابنة الشيخ وأريد أن أطلب يدها، وقد أربكني سفر الـشيخ فهـل الوقت ملائم لأعبر عن رغبتي هذه؟

فارس: أنت شاب كفؤ لتكون صهر الشيخ، فان كانت هذه رغبتك فلا تتردد (يبتسم) خطر لبالي أنه ربما كنت أنت الذي يتردد على بيت الشيخ في الليالي ليشاهد طيف محبوبته.. أليس كذلك؟ (خالد لاينكر) وشيخنا ظن أنها محاولة لاغتياله!

خالد: كيف عرفت ذلك؟

فارس: شعرك يفضحك.. أما كنا شـبابا؟ ألا نعـرف حماقـات الشباب؟

خالد: أتمنى أن لا يكون الشيخ قد لاحظ شيئا، فربما لا يغفر لي هذا الأمر!

فارس: نحن لسنا في عصر قيس وليلى ولا أظن أن الشيخ له قلب جلمود، فقد أسمعني مرة شيئا من شعره الغزلي الاّ أنـه نـادر.. وأعلم أن كل شيء يغفر للإنسان إن تحول الى عمل إبـداع.. أو اذا انتهى به الى حل سعيد..

(6) (في منزل الشيخ فوضى الرحيل.. الحقائب تملأ بالثياب .. حنيفة تحشو الملابس الداخلية في كيس كبير خاكي.. الشيخ يحشو كيسا آخر بكتبه وأوراقه، وأعدادا من الجوائب كتب فيها شعره .. حسن يلف عدسته العزيزة ببشكير ويضعها بين الثياب في احـدى الحقائب.. حنيفة تأتي بعلبة مخملية بها طقم الفضة من الملاعـق والسكاكين والشوك أهداه علي بك للشيخ وتحتار أين تضعها)

حنيفة: لو أنك تخفف من حمل هذه الصحف والمجلات والكتـب الى لبنان.. الناس يعودون بالأشياء الثمينة ونحن نعود بالأوراق..

الشيخ: هذه الأوراق عندي أثمن من كل متاع الدنيا.. أموت وتبقى خالدة بعدي تخاطب الأجيال!

حنيفة: ألا تكفينا المكتبة التي تركناها في صيدا؟

الشيخ: أتمنى لو أحمل معي كل الكتب الثمينة في استنبول الـى لبنان! (يدخل حسن)

حسن: بابا، جاء خالد يساعدنا في نقل الحقائب!

الشيخ: بارك الله فيه (الى حنيفة) اذهبي الى الـداخل واحـضري بعض الأكياس، ريثما يساعدني خالد في تفريغ المكتبة..

حنيفة: أدخل طقم الفضة في كيس الكتب فلا مكان له في حقائبي!

(تدخل المطبخ الى سناء) ألدينا أكياس إضافية للكتب؟

سناء: أحضرت منها ما يكفي، فهي أخف حملا من الحقائب وتسع الكثير فقط لايجب أن تتعرض للبلل..